٣ ـ المعانى الافلاطونية عند المعتزلة*

للاستاذ محمود الخضيرى
عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس

نشأة الكلام فى الاسلام

كتب موسى بن ميمون (١٢٠٤ م) وهو يؤرخ علم الكلام : « إن أول ابتداء الإسلام بهذه الطريقة [أى علم الكلام] كانت فرقة ما ، وهم المعتزلة » (١) . وكذلك جاء فى مخطوط عربى فى المكتبة الأهلية بباريس، يرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٨١٧ من الهجرة، تحت عنوان أول من صنف فى الكلام : « أبو حذيفة واصل بن عطاء . . . لم يعرف فى الإسلام كتاب كتب على أصناف الملحدين ، وعلى طبقات الخوارج ، وعلى غالية الشيعة والمشابهين فى قول الحشوية ، قبل كتب واصل بن عطاء الخ . . . » (٢)

والواقع أنه لما كان المعتزلة يعيشون فى وسط ثقافى ، لم تنفصل فيه الأفكار الفلسفية عن التصورات الدينية ، فإنهم لم يتوانوا فى أن يبدأوا فى الإسلام هذه الخطة ، وكان عليهم إذاً أن ينظروا فى المسائل الفلسفية الكبيرة بدون القرآن ومدده ، ومما يثبت أنهم كانوا فلاسفة قبل كل شىء ، أنهم لم يفعلوا العكس ، أى أن القرآن لم يكن محور مقالاتهم ومبدأ آرائهم ، وإن كانوا يستشهدون بآياته فى أحايين كثيرة ، ثم إنهم لم يضحوا مع ذلك بعقيدتهم ، وفى هذا يتمايزون عن المتكلمين الذين جاءوا من بعدهم ، والذين كانوا يرفضون أصول العقيدة فوق متناول العقل (٣) ، والذين لم يكونوا يتعاطون الفلسفة إلا وهم بادئون من الايمان كما يبدأ بالمقدمات ، ثم ينتهون إليه بعد كل شىء كما ينتهى إلى النتائج ، ولكى نبين مدى المناسبات والخلاف بين المعتزلة والمتكلمين ، نكتفى بأن نورد هنا بعض ملاحظات على أصل كلمة « كلام » باعتبارها اصطلاحاً فنياً ، وسوف تعيننا هذه الملاحظات على أن نثبت أن المعتزلة هم مؤسسو علم الكلام الذى يشتمل على الفلسفة الحقيقية للاسلام .

---

* راجع عددى أغسطس وأكتوبر سنة ١٩٣٢ من « المقتطف »

(١) دلالة الحائرين ج ١ ص ٧٤ وجها

(٢) كتاب الاوائل للعسكرى (أبى هلال الحسن الخ) رقم ٥٩٨٦ من القسم العربى (الخزانات الجديدة) ص ١٩٥ ظهرا .

(٣) الفارابى : احصاء العلوم ، طبعة عثمان أمين ، القاهرة سنة ١٩٣١ ص ٧٢ الى ص ٧٦ ، وابن خلدون : المقدمة ، الطبعة المذكورة سابقا ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠

يعرف علم الكلام بأنه «صناعة يقتدر بها الانسان على : نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل »[١] ؛ وبتعريف آخر : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ؛ وسر هذه العقائد هو التوحيد »[٢]

ولكن ! أى علاقة بين علم هذا موضوعه ، وبين الاصطلاح الذى يدل عليه ؟

إن المعنى الأول لهذا الاصطلاح هو المعنى الشعبى المعروف ، ثم توسعت دلالة الكلمة فأصبحت تطلق على «النظر» أو «البحث» بمعنى عام ؛ وعلى هذا النحو يتكلم المرتضى عن « كلام » الطبقتين الأولى والثانية من المعتزلة ، أى عن كلام الخلفاء الراشدين وعبد الله بن عباس وأبناء على بن أبى طالب[٣] ؛ ثم إن الكلمة أخذت بعد هذا معنى الجدل والمناقشة ؛ ومن هنا يذهب بعض مؤرخى علم الكلام إلى أن لفظ «الكلام» مشتق من أصل آخر ، وهو « كلم » بمعنى جرح[٤] ؛ وذلك لأن هذا العلم كان يرمى قبل كل شىء — حسب زعم هؤلاء — إلى نقض حجج الخصوم وإظهار بطلانها ؛ ومن هنا يتصور « الكلام » كنهج يقابل «المنطق» عند الفلاسفة ؛ والكلمتان تدلان فى الأصل فى اللغة العربية على معنى واحد .

ونحن نعلم من جهة أخرى أن من المسائل التى بدأت تشغل الفكر الاسلامى مسألة كلام الله ، أى القرآن ، ومعرفة ما إذا كان مخلوقاً محدثاً أم قديماً أزلياً ؛ ولما كان هذا أهم الموضوعات التى دارت حوله الخلافات والمناقشات الدينية فى ذلك العصر ، فربما كان هذا هو السبب الذى من أجله سمى العلم الذى كان يبحث فى كلام الله «علم الكلام »[٥] .

نحن نرى من ذلك أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام على كل حال ؛ ونستعين فى ذلك بالشهرستانى الذى يقول : «إن المعتزلة بعد أن طالعوا كتب الفلاسفة ، أفردوا مناهج الكلام فناً من فنون العلم وسموه باسم الكلام »[٦] .

وكذلك يسميهم الخياط المعتزلى (المتوفى ٣٠٨ هـ — ٩٢٠ م تقريباً) «أرباب الكلام»[٧] ؛ وكذلك يقول المرتضى ، كلما ذكر اسم معتزلى : « إنه كان من أعلم أهل الكلام » .

---

(١) الفارابى : الكتاب المذكور ، ص ٢١ (٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٦٣ . (٣) ذيل من كتاب الملل والنحل ، ص ١ الى ١٢ (٤) النسفى : العقائد . طبعة استانبول . ص ٧ (٥) الشهرستانى . الملل والنحل . الطبعة المذكورة سابقاً ج ١ ص ٣٢ ، والنسفى : العقائد ص ٦ (٦) الشهرستانى : الكتاب المذكور . فى نفس الصفحة .

(٧) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد نشره الدكتور نيبرج Nyberg . القاهرة سنة ١٩٢٥ ، ص ٥٠ .

وإنما أصبح اسم المتكلمين يطلق فيما بعد على خصوم المعتزلة ممن يجمعون إلى الاشتغال بعلوم الدين الخبرة بمسائل الفلسفة ؛ وهذا ما يلخصه الأستاذ (ده بور De Boer) الهولندي بقوله : « أصبح اسم المتكلمين ـ الذي كان يطلق في بادىء الأمر على كل النظار Dialektiker على العموم ـ يفضل إطلاقه فيما بعد على خصوم المعتزلة ؛ وأهل السنة من رجال الدين » (١)

وهذا التطور تابع لتطور عام في تاريخ الإسلام ؛ وذلك أن الزمن الذي أعقب عصر المعتزلة كان عصر انحطاط فكري واجتماعي ؛ وإذ ذاك هجر الناس النظر في علم ما بعد الطبيعة والاستعانة به في فهم أصول الدين ؛ وإذا لجأوا إليه فإنما الغرض منه هو « حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية » (٢) أي « العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها ، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها ؛ إذ لا فاعل غيره ؛ وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته » (٣) .

وهذا النوع من الزهد في البحث العلمي ، واليأس من كفاية العقل يختلف كل الاختلاف عن الروح الفلسفية التي أشرب بها المعتزلة الذين سنتولى دراستهم ؛ تلك الروح التي لا تضع للعقل الإنساني حدوداً تتقيد بها حريته .

ولسنا نقصد الآن في أن نكتب موجزاً وافياً لتاريخ علم الكلام ؛ وإنما أوردنا ما كتبناه من مقدمات عامة : لنبين موقف المعتزلة التاريخي في تأسيس تلك الحركة الفكرية الهائلة ؛ وسنجتهد في الصفحات التالية أن نعرض بإيجاز الخصائص المذهبية العامة للمعتزلة .

الخصائص المذهبية للمعتزلة

ليس من المستطاع أن نجد لدى جميع المعتزلة مذهباً واحداً متماسك الأجزاء يشترك الكل في القول به ؛ وذلك لأن شيوخهم عاشوا في عصر تأدت إليه كل الثقافات السابقة شرقية وغربية ؛ ثم لأنهم كانوا مأخوذين بروح النقد ؛ وهدم حجج الغير سواء من المعتزلة أم من غيرهم ؛ ومثال ذلك أنهم لا يتفقون فيما بينهم على مذهب واحد في موضوع الجزء الذي لا يتجزأ

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام Geschichte der philosophie im Islam شتوتجارت سنة ١٩٠١ ص ٤٤

(٢) ابن خلدون : المقدمة : ٣٦٦ ، ومعنى التوحيد في الإسلام في العموم هو كما يعرفه السيد الشريف الجرجاني : « معرفة الله تعالى بالربوبية والإقرار بالوحدانية ونفي الأنداد عنه جملة » كتاب التعريفات ـ مطبعة القسطنطينية ص ٤٨ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٥ .

إذ أن فريقاً منهم يستعين بهذا المذهب ليفسر به كل الظاهرات ؛ ثم إن فريقاً آخر يتبع أنكساغوراس (Anaxagoras) ؛ ويميل فريق ثالث ميل أرسططاليس كما سنبينه فيما بعد .

على أن لهم أصولا مشتركة بحيث لا يطلق على مفكر إسلامى اسم الاعتزال حتى يقول بها جميعاً ، ولكن هذه الأصول ليست إلا جزءاً صغيراً من مجموع آرائهم ومقالاتهم ، إذ أنها لا تتجاوز تحديد موقفهم أمام بعض المسائل الدينية الكبيرة .

كتب الخياط المعتزلى : « ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا كملت فى الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلى » [1] . وكذلك كتب الأشعرى (٣٢٤ هـ - ٩٣٥ م) : « فهذه أصول المعتزلة الخمسة التى يبنون عليها أمرهم، قد أخبرنا عن اختلافهم فيها ، وهى التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين وإثبات الوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » [2] .

وكذلك يذكر الخياط عناوين مسائل ، ويؤكد أن المعتزلة اختصوا بالنظر فيها، مثل : « الكلام فى فناء الأشياء وبقائها، والقول فى المعانى ، والكلام فى المعلوم والمجهول، والكلام فى التولد ، والكلام فى إحالة القدرة على الظلم ، والكلام فى المجانسة والمداخلة ، والكلام فى الإنسان والمعارف » ؛ وهذه رءوس مسائل فلسفية ، سوف نشرح قول المعتزلين فيها، ونبين قيمتها وعلاقتها بالمذاهب الاغريقية ، ثم إن الخياط يضيف إلى ماسبق قوله : « ولا تجد على أحد من المعتزلة ، فى هذه الأبواب التى ذكرتها حرفاً واحداً إلا لمن خالفه فيه من المعتزلة ، فأما الغير المعتزلة فلا تجد حرفاً وا... ... هذه الأبواب إلا لانسان سرق كلاماً من كلام المعتزلة فأضافه إلى نفسه [3] » ، وكذلك نسب فى موضع آخر بمناسبة أبى الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ - ٨٤٩ م) : « إن الكلام فى ما كان وفى ما يكون وفى الكل وفى البعض وما يتناهى وما لا يتناهى من غامض الكلام ولطيفه : وإنما كان أبو الهذيل يكثر ذكره والكلام فيه لشدته ولعنايته به ، ومن بعد فهل يعرف فى الأرض فصل بين هذين الكلامين إلا للمعتزلة ؟ » [4] .

---

(١) الانتصار : ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢) الامام أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، نص بتصحيحه الاستاذ « : رتر (H . Ritter) من منشورات جمعية المستشرقين الالمانية . استانبول ١٩٢٩ - ١٩٣٠ ج ١ ص ٢٧٨ . وسنشير فيما بعد الى هذا الكتاب المهم بقولنا : الاشعرى : مقالات

(٣) الانتصار ٢ ص ٧ ؛

(٤) نفس الكتاب ، ص ١٣ .

وتبين لنا هذه العناوين التى تشير إلى مسائل نظر فيها المعتزلة ، أنهم درسوا الفلسفة من جميع وجوهها ؛ وإذا تصفحنا عناوين الكتب التى سنوردها فيما بعد عند كلامنا عن مؤلفيها ببعض التفصيل ، تلك الكتب التى ضاعت لسوء الحظ ، فاننا نستطيع أن نجزم بأن فلسفة المعتزلة كانت من كمال التوسع ونظام الترتيب مثل فلسفة الفلاسفة الاسلاميين ، الذين جرت العادة فى اللغة العربية على أن يختصوا بهذا الاسم ذى الأصل الاغريقى ، ومن ناحية أخرى فاننا سوف نرى فى مذاهبهم حظاً أوفر من إصالة الفكر وحرية التأليف والابتكار ، وهم يستعيرون من الاغريق والهنود والفرس آراء كثيرة ، لكنهم إنما يستعينون بها لتشييد مذاهبهم الخاصة بهم ؛ وسنجتهد الآن أن نشرح ما أوردناه جملة من مذاهبهم المشتركة التى لا تنالها اختلافاتهم الفردية إلا فى التفاصيل .

ا — التوحيد

أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شىء ، وأنه ليس بجسم طبيعى أوحيوانى ، وأن ذاته ليست مؤلفة من جوهر ذى أعراض تدركها الحواس ؛ وأنه منزه عن أعراض المادة وخواصها ؛ وأنه بسيط يستحيل عليه التجزؤ ، لايحيط به المكان ، ولا يجرى عليه الزمان ، لا تحده الحدود والنهايات ؛ ولا تحيط به الكميات ، ولا يقاس بالناس ، تام الكمال ، لايستطيع الوهم الانسانى أن يتصور شبيهاً له ؛ وجوده أزلى ولا يشاركه فى الأزل أحد ، تفرد بصفاته الالهية . لم يخلق الخلق على مثال سابق ، ولم يعنه معين فى خلقه ؛ لاتجوز عليه الغايات والنهايات ، ولاينا له ماينال الناس من ألم وسرور ، إذ لاتدركه شهوات ولايلحقه عجز أو نقص [1] ؛ وسنرى عند دراستنا هذا المذهب عند بعض شيوخ المعتزلة مقدار علاقته بمذهب أفلاطون ، وإنما نكتفى الآن بالقول إن هذا التصور هو نقيض تصور الصفاتيين ، أى الذين يذهبون إلى أن للصفات الالهية وجوداً حقيقياً يشارك الذات فى الأزلية ؛ وكذلك يناقض قول المشبهة الذين يتصورون الصفات الالهية على مثال الصفات الانسانية .

ب — العدل الالهى وحرية الارادة الانسانية

بينما يعرف أهل السنة العدل الالهى بأنه « التصرف فى الملك على مقتضى المشيئة والعلم » ، إذ بأهل الاعتزال يعرفونه بأنه « ما يقتضيه العقل من الحكمة وهو إصدار الفعل على وجه

---

(١) الاشعرى : المقالات ، ج ١ ص ١٥٥ و ٢٥٦ ؛ والشهرستانى : الملل والنحل ، ج ١ ص ٤٨ – ٤٩ .

الصواب والمصلحة » [١] . وهم يقولون أيضاً : إن الله لم يخلق الكفر ولا المعاصى، ولا أفعال الخلق كلها ، وإنما وهب الناس « الاستطاعة » ، وهى قدرة على الفعل سابقة له[٢] ؛ وهم مع ذلك لا يتفقون على رأى واحد فى تصور هذه « الاستطاعة » ، وهل هى صفة أم عرض أم لازمة للانسان ؟ ثم إنهم يقولون أيضاً إن الله خلق فى الانسان ملكة لتمييز الخير من الشر ، وإن الناس يولدون جميعاً برءاء من السوء ، وإنهم وحدهم هم الذين يعيبون حظهم الأخلاق والعملى [٣] ؛ ونحن نعلم أن خصومهم ذهبوا بالعكس إلى أن الله قدر كل شىء قبل حصوله وأنه أمر وحدد « قسمة » كل إنسان ، وأن المرء لا يقدر على أن يغير مجرى الحوادث . ونقول بهذه المناسبة : إن المذهب الجبرى ليس المذهب الرسمى للاسلام ، وإننا نسلم قياد عقولنا إلى أوهام سابقة إذا اعتقدنا أن القرآن ينفى الحرية الانسانية ، ولاعبرة فى ذلك بالتاريخ السياسى للمسلمين ؛ إذ أن الأمويين مثلا كانوا ينشرون الدعوة الجبرية ، ويحاربون كل قول بحرية الارادة ، ليهونوا على الرعايا احتمال ما أحدثوه من تغيير فى نظام الحكم ، مما استدعى فى أحايين كثيرة الخروج على ما عهده المسلمون حتى ذلك العهد ، وليضعفوا باسم الدين تقدير الحرية .

وقد ذهب مستشرقون أمثال ألفرد فون كريمر (Alfred von Kremer) وإجناس جولد سيهر (J. Goldziher) والأستاذ مكس هرتن (Horten) ؛ إلى أن كلام المعتزلة فى حرية الارادة متأثر باحتكاك المسلمين بالمسيحية لا سيما فى سوريا [٤] ، ولكننا نرى أن هذا التأثير لا يرجع إلى أصل دينى بحال من الأحوال ، وإنما يرجع إلى سبق المسيحيين إلى تعلم المذاهب اليونانية ، وسنرى فيما بعد بمناسبة النظام (٢٤٠ هـ - ٨٥٤ م) إلى أى حد تأثر مذهب المعتزلة فى العدل بأفلاطون .

ومن رأى المعتزلة أن الله لا يقدر على صنع الشر ؛ وقد روى النسفى (٧١٠ هـ - ١٣١٠ م) محاورة بين الجبائى المعتزلى (٣٠٣ هـ - ٩١٥ م) وتلميذه الأشعرى ، على أثرها هجر الأخير الاعتزال بعد أربعين سنة قضاها فى طلب العلم على الجبائى ؛ كما يقول ابن عساكر . قال النسفى : « وهم سموا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب ثواب المطيع وعقاب العاصى

---

(١) الشهرستانى : نفس الكتاب ج ١ ص ٤٩

(٢) الخياط : الانتصار ، ص ٧٨ وما بعدها . والاشعرى : المقالات ، ج ١ ص ٢٣٠ وما بعدها

(٣) الاشعرى : المقالات ، ج ١ ص ٢٢٧ وما بعدها

(٤) فون كريمر : تاريخ ثقافة الشرق فى عهد الخلفاء (Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen) فى مجلدين ، فينا ١٨٧٥ - ١٨٧٧ ، ج ١ ص ٧ . وجولد سيهر : محاضرات عن الاسلام ، القسم الثالث . و هرتن : المذاهب . ص ١٠٩

على الله تعالى ، ونفى الصفات القديمة عنه ؛ ثم إنهم توغلوا فى علم الكلام وتشبثوا بأذيال الفلاسفة فى كثير من الأصول ؛ وشاع مذهبهم فيما بين الناس ، إلى أن قال الشيخ أبو الحسن الأشعرى لأستاذه أبى على الجبائى : « ما تقول فى ثلاثة أخوة مات أحدهم مطيعاً والآخر عاصياً والثالث صغيراً ؛ فقال : الأول يثاب بالجنة ، والثانى يعاقب بالنار ، والثالث لا يثاب ولا يعاقب ؛ قال الأشعرى : فإن قال الثالث : يارب لم أمتنى صغيراً ، وما أبقيتنى إلى أن أكبر فأؤمن بك وأطيعك فأدخل الجنة ؛ فقال : يقول الرب إنى كنت أعلم منك ، لو كبرت لعصيت فدخلت النار ؛ فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً . قال الأشعرى : فإن قال الثانى : لم لم تمتنى صغيراً لئلا أعصى لك أمراً فلا أدخل النار ؛ ماذا يقول الرب ؛ فبهت الجبائى وترك الأشعرى مذهبه ، واشتغل هو ومن تبعه بإبطال رأى المعتزلة وإثبات ما وردت به السنة ... الخ » [١] .

[باريس] محمود محمد الخضيرى

(١) النسفى : العقائد ، طبعة استانبول ص ٨ و ٩ . وكذلك يتبع الشهرستانى فى [illegible] المناظرة المشارة موجزة فى ج ١ ص ٣٦

أنا والحب العذرى

عودتنى خفر الوثائق ؛ مىّ   منذ كانت ومنذ كنت صبيا
ما كأنى من عاشقيها ومن   بلغوا فى الهوى مكاناً قصيا
إنها لا ترى الوفاء وإنى   لم أكن فى الترنم إلا وفيا
لست أدرى ماذا جنيت ؛ وحبى   كان فيها ولم يزل عذريا ؟
ميـة ؛ قلبها حديد ومن لى   من يلين الحديد طبعاً وليا ؟

* * *

أحلال يا مىّ خفر عهودى   وغرامى ما كان شيئاً فريا ؟
أنت أشقيتنى وفيك ولوعى   أو ترضين أن أعيش شقيا ؟
كل ما فى الحسان فيك وكل الحب   فى العاشقين يا مى فيا
عربى هواى فيك ، وغدر   بغرامى أن تهجرينى مليا
ليتنى ما خلقت فى العرب صباً   لا ، ولا كنت فى الهوى عربيا

توفيق أبو المحاسن اليعقوبى